فن التفكير

د. أحمد البراء الأميري



العبيكان
Obeikan

فنّ التفكير

رؤية إسلامية

د. أحمد البراء الأميري

العبيكان
Obeikan

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأميري، أحمد البراء

فن التفكير - رؤية إسلامية./ أحمد البراء الأميري - ط٣ .-
الرياض، ١٤٢٩هـ

٨٤ ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٢ - ٤٥٠ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ - التفكير أ - العنوان

ديوي: ١٥٣,٤٢ ١٣٥٤ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٣٥٤ / ١٤٢٩

ردمك: ٢ - ٤٥٠ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[١].

والقول السديد هو القول القاصد إلى الحق والعدل[٢]. قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره[٣]: «أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال؛ أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق؛ لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً. ثم وعدهم على الأمرين بأمرين: على الخيرات بإصلاح الأعمال... وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب». و«السداد: الاستقامة»[٤].

---

(١) الأحزاب: ٧٠ - ٧١.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري: ٣ / ٥٦٣ (طبعة دار الكتاب العربي).

(٣) ٢٥ / ٢٠٢ (طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني: ٢٣٣ (طبعة دار الفكر - بيروت).

وغني عن البرهان أن القول السديد المستقيم القاصد إلى الحق والعدل لا يصدر عن فكر مختل، وهوى يعمي ويصم، إنما يصدر عن **فكر سديد وعقل رشيد**. ومن هنا نعلم أهميةَ الفكرِ السديد كما بينها القرآن المجيد، وصلتَه الوثقى بالفاعلية. فلولاه لأكبّ الإنسان على وجهه، وبه يسير سوياً على صراط مستقيم:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ولا يخفى على الناظر في أحوال المسلمين اليوم ما هم فيه من تخلف عن الأخذ بأمر الله، وعن ركب الحضارة **المادية** التي بلغ بها الإنسان غير المسلم ذروةً لم يسبق أن بلغ قريباً منها في تاريخه الطويل منذ أن أهبط إلى الأرض.

وهذا التخلف له أسباب متعددة من أهمها: عدم العناية بتنمية ملكة التفكير السديد الرشيد، التي أكرم الله بها الإنسان وفضله على سائر مخلوقات كوكبه، ومما يدعو إلى العجب والدهشة أن غالبية المدارس في العالم الإسلامي

---

(١) الملك: ٢٢.

- إن لم تكن كلها - لا تدرّس مادةً تعلِّم التفكير أو تساعد على تحسينه، في الوقت الذي نرى فيه الغربيين يبذلون عناية متزايدة في هذا الجانب، حتى إن بلداً مثل فنزويلا فرضت حكومته على طلاب مدارسها أن يدرسوا ساعتين في الأسبوع مادة سمّوها «مهارات التفكير» ودرّبوا على تدريسها أكثر من مئة ألف معلم، ووضع لهم مقرّر هذه المادة الدكتور إدوارد دو بونو، أحد أشهر المتخصّصين في هذا المجال. واستُعمل هذا المقرر في عدة بلاد منها: كندا، وبريطانيا، وأيرلندة، وأستراليا، ونيوزيلندة.. وهو الرجل الذي وضع دورات لتعليم التفكير من خلال التلفاز لمحطة بي بي سي، عرضَتْها سبعٌ وثلاثون محطة تلفازية في أمريكا، كما وضع لتلفاز ألمانيا الغربية برنامجاً عن «عظماء المفكرين» عرضته بعض المحطات الأوربية[١].

---

(١) هذه المعلومات مأخوذة من ظهر الألبوم الذي يضم ستة أشرطة وثلاثة كتيبيات من إعداد دوبونو بعنوان: قوة التفكير المركّز:

The Power of Focused Thinking International Center for Creative Thinking 805 W. Boston Post Rd. Mamaro neck, Ny 10543 .

إن المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى أن يعلّموا أبناءهم في المدارس والجامعات أصول التفكير السديد، ويدربوهم عليها، ويبينوا لهم أخطاء التفكير، ومزالقه، ليتجنّبوها. ولعل أحد من بيدهم الأمر تقع عينه على هذه السطور، ويقتنع بصواب هذا الاقتراح، فيبادر إلى إقرار مادة التفكير في المدارس والجامعات، ويكون بذلك قد سنَّ سنّةً لا يزال أجرها واصلاً إليه إلى يوم القيامة إن شاء الله.

إننا نَدْرس الرياضيات، وندرّسها لأبنائنا، ولكننا لا نستفيد من أهم ما تمنحه دراسة الرياضيات لصاحبها: تصحيح عملية التفكير. إن دارس الرياضيات ينبغي له أن يتعلم منها - إلى جانب التفكير الصحيح - الخُلُق الحسن، الصبر والأناة.. فالمسائل المعقّدة تحتاج إلى صبر وإعمال فكر، والخطوط والزوايا والأرقام لا تصيح، ولا تعضّ، ولا تتأثر بالترغيب والترهيب، فالحقائق هناك، ومن يبرهن عليها ويكشفها بنور العقل تمكّنه من نفسها، ويقدر على تسخيرها والانتفاع بها.

منزلة التفكير في الإسلام:

من مزايا القرآن الكريم الكثيرة: **التنويه بالعقل، والتعويل عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف**. ونحن نجد في التنزيل العزيز آيات كثيرة مثل قوله سبحانه:

﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يعْقِلُونَ﴾، ﴿أفَلا تعْقِلُونَ﴾، ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾، ﴿يا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تتفكَّرُونَ﴾، ﴿أفلا تتفكَّرُونَ﴾، ﴿لعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿أَفَلَمْ يدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾.

يقول عباس محمود العقاد[(١)]:

«بهذه الآيات، وما جرى مجراها، تقررت - ولا جرم - فريضة التفكير في الإسلام، وتبيّن منها أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر، ويُحسن الادّكار والرويّة، وأنه هو العقل الذي يقابله الجمود،

---

(١) التفكير فريضة إسلامية: ٢١ - ٢٢ (طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٩١ - ١٩٧١).

والعنت، والضلال، وليس بالعقل الذي قُصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون...

«والذي ينبغي أن نثوب إليه مرةً بعد مرة، أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضاً، ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره، ويترقبها من هذا الدين كلٌّ من عرف كنهه، وعرف كنه الإنسان في تقديره».

وإن الدارس المتبصر للقرآن الكريم يجد فيه آياتٍ حافزةً على ممارسة عدد من مهارات التفكير، منها - على سبيل المثال لا الحصر:

١- مهارة الإصغاء.

٢- ومهارة الانتباه.

٣- ومهارة التفكر.

٤- ومهارة الربط بين المتشابهات.

٥- ومهارة التفريق بين المختلفات.

٦- ومهارة الاستنتاج.

٧- ومهارة التتبع... إلخ.

حكم دراسة المنطق:

قيل في تعريف المنطق إنه «آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر. فهو علم عملي آلي، كما أن الحكمة (يعنى الفلسفة) علم نظري غير آلي»[١].

ونقل عن بعض العلماء تحريم دراسة المنطق وعلم الكلام، ومرادهم تحريم الكلام في ذات الله سبحانه وصفاته، وإخضاع ذلك لعقول البشر المحدودة ومقاييسهم، وليس مرداهم تحريم قواعد التفكير الصحيح، ولا يمكن أن يكون ذلك.

نقل الإمام السيوطي[٢] عن الإمام الشافعي رحمهما الله قوله: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام». ثم قال

---

(١) التعريفات - علي بن محمد الشريف الجرجاني: ٢٥١ (مكتبة لبنان - ١٩٨٥).

(٢) في كتابه المسمى: صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام: ٣١ تحقيق د. علي سامي النشار (الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، مصر).

السيوطي رحمه الله معلقاً على ذلك: «دلّ نصُّه على أن مما يُعلّل به تحريم النظر في علم الكلام كونه أسلوباً مخالفاً لأسلوب الكتاب والسنة، أو كونه سبباً لترك الكتاب والسنة، ونسيانهما، وذلك جارٍ في المنطق أيضاً».

قال صاحب السُّلَّم مُبيناً اختلاف العلماء في حكم الاشتغال بعلم المنطق:

والخُلْفُ في جواز الاشتغال
به على ثلاثةٍ أقوال:
فابن الصلاح والنواوي حَرّما
وقال قومٌ: ينبغي أن يُعلما
والقولة المشهورة الصحيحة
جوازه لكامل القريحة
ممارسِ السنة والكتاب
ليهتدي به إلى الصواب

قال شارحه أحمد الدمنهوري[1] رحمه الله: «واعلم أن هذا الخلاف إنما هو بالنسبة للمنطق المشوب بكلام

---

(١) إيضاح المبهم من معاني السلّم: ٥ بتصرف (المطبعة الحميدية المصرية - ١٣١٣هـ).

الفلاسفة.. وأما الخالص.. فلا خلاف في جواز الاشتغال به، بل لا يبعد أن يكون الاشتغال به فرض كفاية لتوقّف معرفة دفع الشبه عليه. ومن المعلوم أن القيام به فرض كفاية. والله أعلم».

قال العقاد [1] رحمه الله: «**المنطق علم يجمع الأصول والقواعد التي يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز. وحكم الإسلام فيه -بهذه المثابة- واضح لا يجوز فيه الخلاف**؛ لأن القرآن الكريم صريح في مطالبة الإنسان بالنظر والتمييز، ومحاسبته على عقله وضلال تفكيره.

«بيد أننا نحتاج إلى التفرقة بين شيئين مختلفين في هذا الموضوع قبل أن نعرض لفتاوى الفقهاء فيه بتحريم أو تحليل، وهما: المنطق والجدل (أو الخطاب الإقناعي) فإنهما ليختلفان ويتباعدان حتى ينتهي الاختلاف والتباعد بهما إلى الطرفين النقيضين».

«فالمنطق بحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم والتمييز الصحيح، والجدل بحث عن الغلبة والإلزام بالحجة، قد يرمي إلى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة، وقد يتحرى مجرّد المسابقة للفوز على الخصم وإفحامه، في مجال المناقضة واللّجاج».

---

(١) التفكير فريضة إسلامية: ٣٥ .

ويمضي العقاد رحمه الله قائلاً[١]: «وإذا أحيل البحث إلى الإمامين الغزالي وابن تيمية فنحن بيد يدي حجّتين من حجج المنطق لا يسبقهما فيه سابق من المتقدمين أو المتأخرين. ومناقشتها للمنطق مناقشة تصحيح وتنقيح وليست مناقشة هدم للأسس التي يقوم عليها، أو تفنيد للأصول التي يرجع إليها. فهما يريدان إثبات الخطأ على من يسيئون تطبيق القياس والبرهان، ولا يريدان محو القياس والبرهان في علمٍ من علوم الدين أو الدنيا، التي جاءت من اليونان أو نشأت بين المسلمين.

«يقول الغزالي في كتابه (مقاصد الفلاسفة): أما المنطقيّات فأكثرها على منهج الصواب، والخطأ نادر فيها، وإنما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والإيرادات، دون المعاني والمقاصد».

«وأما ابن تيمية.. فهو يستخدم قضايا المنطق ليُبطل دعوى المناطقة الذين يضعون الحدود في غير مواضعها، ويقيسون الأشباه والنقائض بغير قياسها، ويهدرون الحقائق في سبيل المصطلحات والألفاظ، بغير دراية لمعناها.. فالمنطق عنده مقيد بالعقل، وليس العقل مقيداً بالمنطق، كما جعله المقلدون من عبّاد الألفاظ، وأصحاب اللجاجة بالمصطلحات الموضوعة».

---

(١) التفكير فريضة إسلامية: ٤٤ – ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ بتصرف.

التفكير

تعريف التفكير:

جاء في المعجم الوسيط[١]: «فَكَرَ في الأمر، يَفْكِر، فَكْراً: أعمل العقل فيه، ورتّب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول. وأَفْكَرَ في الأمر: فَكَر فيه، فهو مُفْكِر. وفكَّر مبالغةٌ في فكَر، وهو أشيع في الاستعمال منه».

تعلم التفكير:

«لقد أصبح من وظيفة التربية أن تُعنى بتعليم الناس كيف يفكّرون، وأن تحذّرهم من مزالق التفكير، وتدرّبهم على أساليبه السديدة، حتى يستطيعوا أن يشقوا طريقهم في الحياة بنجاح، ويدعَموا بناءَ الحضارة، وحتى لا يصيروا عبيداً للغير في تفكيرهم...

«وقد يتساءل الناس: هل يحتاج الإنسان أن يتعلم كيف يفكر؟ أوليس الإنسان مفكراً بطبيعته؟ والجواب على ذلك أن

---

(١) ٢ / ٧٠٥ (مجمع اللغة العربية، طبعة المكتبة العلمية - طهران). وانظر: تاج العروس: ٣ / ٤٧٥، ومفردات الراغب الأصفهاني: ٣٩٨ - ٣٩٩ (طبعة دار الفكر، تحقيق نديم مرعشلي).

الإنسان في حاجة إلى تعلّم طرق التكفير، والتدرّب على مهاراته، كحاجته لأن يتعلم كيف يتكلم، وكيف يعامل الناس...»[(١)].

ومما يساعد على تعلم التفكير الصحيح - بالإضافة إلى الطرق والقواعد المعروفة - التخلّق ببعض الأخلاق، واكتساب بعض الفضائل والعادات النفسية الحسنة، وكلّما كان تمثل هذه الأخلاق والعادات في سنّ أبكر كانت النتيجة أحسن.

فالعاقل يَعلَمُ، وينبغي أن يُعلِّم من هو في رعايته أن المرء لابد أن يخطئ، فهو لا يصيب دائماً؛ لذلك عليه ألا يتعصب لأفكاره، فإذا واجهه إنسان بما يخالف رأيه عليه أن يحسن الاستماع إليه، بقصد الوصول إلى الصواب، لا بقصد نقض كلامه، وفي تراثنا الإسلامي أمثلة لو تمثلها النشءُ لآتت أحسن الأُكُل، منها:

قول التابعي الجليل الثقة محمد بن عجلان رحمه الله: «إذا أخطأ العالم (لا أدري) أُصيبت مَقاتِلُه»[(٢)].

---

(١) التفكير العلمي - د. الدمرداش سرحان ود. منير كامل: ٢٨ بتصرف. (الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٣).

(٢) انظر: صفحات في أدب الرأي - محمد عوامة: ١٢٧ (دار القبلة للثقافة الإسلامية - ط١: ١٤١٢ / ١٩٩١).

ونظم هذا المعنى شعراً ابن دريد فقال:

ومن كان يهوى أن يُرى متصدِّراً ... ويكره (لا أدري) أصيبت مقاتله

وسئل الإمام الجليل مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، رحمه الله مرةً عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري!

وقدم عليه خالد بن خداش من العراق بأربعين مسألة فما أجابه إلا في خمس مسائل!

وأكاد أجزم - والله تعالى أعلم - أن ذلك لم يكن عن جهل منه رحمه الله، إنما عن تورّع، وعن عدم الوصول إلى الاطمئنان الكامل للجواب الذي يريد أن يعطيه للسائل.

ومنها: قول الإمام العظيم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: «ما ناظرتُ أحداً فأحببت أن يخطئ»، وقوله: «وددتُ أن الناس لو تعلَّموا هذه الكُتُبَ، ولم ينسبوها إليّ»(١). وهذه قمة في الإخلاص والتجرد لله قلَّ أن تُسامى.

وما رواه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما: «خُذِ الحكمة، ولا يَضرك من أي وعاء خرجت»(٢). فهذه الأقوال

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه - أبو حاتم الرازي: ٣٢٦، تحقيق: عبدالغني عبدالخالق (مكتبة التراث الإسلامي - حلب).

(٢) انظر كشف الخفا - العجلوني: ١ / ٤٣٦ .

وأمثالها لو (بُرْمجتْ) عليها عقول الناشئة لكان لها أحسن الأثر في تسديد التفكير وترشيده.

ويمكن للمربي - أو المعلّم - أن يستفيد في تعليم التفكير من الطرق (أو المهارات) التالية[١]، (التي يلاحظ أن بعضها متصل بالآخر، أو متداخل معه):

١ ـ **المقارنة**: وتكون بإبراز أوجه الاتفاق والافتراق أوالعلاقة بين شيئين، أو فكرتين، أو عمليتين، أو شخصيّتين، أو كتابين، ... إلخ. فقد تكون المقارنة بين المتنبي والمعري في شعر الحكمة، و بين شوقي وحافظ في الرثاء، وقد تكون - مثلاً - بين الحربين العالميتين الأولى والثانية من حيث العدد، والعتاد، والاستراتيجيات القتالية، والنتائج... أو بين مجموعتنا الشمسية ومجموعات شمسية أخرى.

٢ ـ **التلخيص**: والمراد به تلخيص كتاب، أو مقال، أو قصة، أو محاضرة... واختصار ذلك إلى ثلث الحجم الأصلي أو ربعه مثلاً. وتتطلب عملية التلخيص فهماً دقيقاً

---

(١) عمليات التفكير - د. تيسير صبحي - مجلة القافلة - عدد ربيع الآخر ١٤١٥، بتصرف.

للمـادة، وقـدرة على إعـادة عـرضـهـا بـحـيث تسلمُ أهدافُـهـا الرئيسية وأفكارها من الحذف أو التشويه. والتلخيص مهارة يتطلب إتقانُها تدريباً مستمراً بإشراف معلم قدير.

٣ ـ **الملاحظة**: تُعَدّ الملاحظة أساس المنهجية العلمية، وهي الخطوة الأولى نحو إدارك ماهية الأشياء، أو الأحداث، أو العلاقات. وهي وسيلة مهمة من وسائل دراسة الظواهر الطبيعية، والاجتماعية، والنفسية. وملكة الملاحظة قابلة للتنمية عن طريق التدريب، وهناك كتب وبرامج باللغات الأجنبية تضم العديد من هذه التدريبات. والملاحظات أنواع منها: السمعي، والبصري، والذهني. ومن أمثلتها: أن يطلب المدرّب من طلبته مراقبة برنامج تلفازي مدته نصف ساعة حول تلوث البحار والمحيطات بالنفايات الصناعية والنووية، ثم يدونون ما لاحظوه.

٤ ـ **التصنيف**: هو «القدرة على تجميع الأشياء، أو الوحدات في مجموعات، وفقاً للتشابه والاختلاف فيما بينها، بحيث تتضمن كل مجموعة وحداتٍ ذات خواصّ أو صفاتٍ مشتركة»[١].

---

(١) دليل مهارات التفكير، ثائر حسين، وعبدالناصر فخرو: ٧٢ (جهينة للتوزيع ـ ط٢ عمّان ٢٠٠٢م).

يرتبط التصنيف بالمقارنة، ويقوم على أسس ومعايير محددة، ويستخدمه الفرد مستعيناً بحصيلته المعرفية، وخبراته المكتسبة. ويبدأ بخطوات الجمع والمقارنة، وتحديد جوانب الوفق والفرق بين الأشياء التي في موضوع التصنيف، ولابد من ملاحظة أساس التصنيف أو معياره في تلك العملية من بدايتها إلى نهايتها.

٥ ـ **التفسير:** يستخدم الفرد حصيلته المعرفية في تفسير الأشياء والظواهر، والأحداث.. ويستفيد في هذا من الملاحظة التي تمكّنه من جمع البيانات والمعلومات حول ما يريد تفسيره. وفي ضوء ذلك قد يقوم بصياغة (فرضية) تعبر عن العلاقة أو العلاقات القائمة بين هذه المعلومات والبيانات، وقد يلجأ إلى المقارنة لتجلية أوجه الشبه أو الاختلاف بين هذه العلاقات. والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد نطلب أو يُطلب منا تفسير ظاهرة ولادة النجوم وموتها. أو ظاهرة تشكل الأجسام المضادة في جسم الإنسان، أو تعليل مشي الإنسان على سطح القمر بما يشبه الطيران، والتثاقل في المشي على سطح الأرض، أو تعليل ظاهرة العنف عند بعض الجماعات، والغلو والتطرف عند أخرى، وما أشبه ذلك...

٦ـ **النقد**: والمقصود هنا النقد الموضوعي الذي يظهر مواطن القوة والضعف في العمل، أو الفكرة التي هي معروضة للنقد والمناقشة، والنقد بهذه المثابة مهارة مهمة من مهارات التفكير، وهو ذو جدوى كبيرة في الوصول إلى الصواب، أو تطوير فكرة او مشروع ما؛ لأن الناظر الواحد قد تخفى عليه بعض الزّوايا، أو يكون متأثراً ببعض العوامل النفسية التي تدفعه للتحيّز - دون أن يشعر - مع الفكرة أو ضدها.

٧ـ **البحث عن افتراضات**: يحاول الفرد صياغة فرضيات مُعَيّنه لفهم، أو تفسير، أو تعليل بيانات، أو معلومات، أو أفكار، أو وجهات نظر، أو دراسات في مجالٍ ما. وقد يكون الافتراض صحيحاً أو خطأً، والحكم عليه يتم بموجب أدلة أو معلومات تثبته أو تنفيه. فمثلاً: إذا وصلتنا إشارات من الفضاء الخارجي، فقد نفترض أنها صادرة عن كائنات حية تعيش هناك، ولكننا لا نستطيع قبول هذا الافتراض ما لم تثبته الأدلة. وإذا تأخر ربّ الأسرة عن موعد عودته بعد الظهر فقد تفترض الزوجة أن أحد أصدقائه قد دعاه إلى الغداء، ولا هاتف عنده

ليخبرها بذلك، وقد تفترض أنه أصيب بحادث، ولكنها لا تستطيع أن تقطع بشيء ما لم يقم لديها الدليل.

٨ ـ **التخيّل**: تعدّ كتاباتُ وقصص الخيال العلمي من أوضح الأمثلة على أهمية التخيّل، إذ يُودي الخيال القائم على بعض الأسس العلمية وظيفة المحرّك الرئيسي الذي ينسج الحدث، ويشكل وقائعه. وفي قصص الخيال العلمي نجد تصوراتٍ لتقانات عالم المستقبل، كمصنع كبير تديره الحواسيب الآلية، أو اختراع سيارة وقودها الماء، أو استخلاص عقار من نبات معروف يفيد في علاج مرضٍ مُستعصٍ، أو استخدام الرقاقات الإلكترونية في شفاء بعض أنواع العمى.

ويجسد التخيل القدرة على الإبداع والابتكار والخروج عن المألوف، كما أنه يمثل بنيةً افتراضية عناصرُها من نسيج الخيال، ويتطلب تحقيقُها جملةً من الشروط والعناصر، والعوامل المساعدة، ومعرفةً علميةً كافية، هذا إذا كانت قابلة للتحقيق ولم تكن من شرود الخيال. ويمكن توظيف مَلَكة التخيل للارتقاء بمستوى التفكير والتدريب للمساعدة في زيادة القدرات الإبداعية مثل: الطلاقة، والأصالة، والمرونة، والميل إلى معرفة التفصيلات.

٩ - **نقل الخبرة من موقف إلى آخر:** يتعلم الفرد في ظروفٍ ومواقفَ معينةٍ: مفاهيمَ، ومبادئَ، وحقائقَ، ويعالج موضوعاتٍ ومشكلاتٍ عديدةً، ويتعرّف على ظواهرَ مختلفةٍ، تشكّل كلّها مخزونَه المعرفي. وليس المقصودُ من التعلم أن يلجأ الفرد إلى هذا المخزون عندما يمرّ بظروفٍ ومواقفَ مماثلةٍ لما مرّ به فحسب، بل المقصود أيضاً أن يستفيد من ذلك المخزون في مواقفَ وظروف جديدة. فتعلُّم الرياضيات في المدرسة - مثلاً - يمكّن الفرد من حساب نفقاته الشهرية، أو إعداد الميزانية الخاصة بتجارته، أو استخدام الرياضيات في تطبيقات صناعية. وإذا ذهبنا إلى أبعدَ من هذا نقول: إن الرياضيات تعلّمة أن في الحياة مواقفَ لا تنفع فيها العواطفُ ولا يُستخدم فيها إلا المنطق والبرهان. فإثبات أن مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموعَ مربعي الضلعين الآخرين[١] لا يتم إلا بالبرهان، ولا تنفع فيه العواطف أو الوساطات[٢].

---

(١) وهي نظرية فيثاغورث.

(٢) يذكر مؤلفا كتاب (دليل مهارات التفكير) الذي أُشير إليه آنفاً مئة من مهارات التفكير، منها: الربط، والتحليل، والتقويم (التقييم)، والتركيز، والتبسيط، والترتيب... إلخ.

تحسين التفكير

كما أن الإنسان يستطيع بالرياضة أن يحسّن من لياقته البدنية، فهو يستطيع كذلك أن يحسّن من تفكيره بطرق عدة من أهمها: الحوار، والقراءة، واجتناب أخطاء التفكير ومزالقه.

الحوار: الحوار هو نافذة فكرية وشعورية بين الفرد وبين الآخرين، والذي يستغني عن الحوار يعيش منغلقاً على ذاته، لا يرى الأمور إلا من زاويته الشخصية، فيكون أكثر تعرّضاً للخطأ، وإن زعم أو ظن أنه أقرب إلى الصواب من سواه؛ فالصواب ليس حكراً على أحد دون أحد، ولا زال أهل الحكمة يستشيرون مَنْ سواهم في صغير الأمور وكبيرها؛ لأن الشورى - كالحوار - طلب التعرف على الرأي الآخر. وأغلب الذين يرفضون الحوار يرفضونه بدافع الخوف منه: إما لعجزهم عنه، وإما لضعف أدلتهم وقلة ثقتهم بما يؤمنون به من الأفكار، وإما بدافع الجمود والتعصب، وإما خشيةً من تغيير موروثات عاشت معهم وعاشوا معها واكتسبت عندهم القداسة والإجلال.

«إن كثيراً من الناس يكوّنون لأنفسهم عالماً خاصاً يظنون أنه العالم كله، وينضجون في عالمهم ذاك الكثير من المعايير الخاصة المتولدة من بيئة نفسية وفكرية ذات نمط واحد، وهذا الصنف من الناس يقع ضحية للتحيّز، والتعميم، والتسرع في الأحكام، وعدم القدرة على رؤية متوازية، وتكون قدرتهم على التكيف - في العادة - محدودة، مما يجعل حياتهم عبارة عن صراع مستمر مع ما حولهم!

«إن المطلوب من الحوار لا يُشترط أن يكون توحيد الرأي دائماً، وإنما المطلوب هو شرح وجهة نظر الأطراف المختلفة، بعضها لبعض، أي: أن يُريَ كلُّ طرفٍ الطرفَ الآخر ما لا يراه. وإذا ما أدى الحوار إلى تضييق شقة الخلاف فإنه يكون قد أدى كثيراً مما نطلب منه. ثم إن وحدة الرأي في كل صغيرة وكبيرة - لا سيما فيما هو محل للاجتهاد - ليست ظاهرة صحية دائماً، فالتنوع المؤطّر مطلوب كالوحدة»[1].

القراءة والكتابة: إن أول كلمة من الوحي الذي نزل على الرسول الخاتم عليه أفضل صلاة وتسليم هي كلمة ﴿اقرأ﴾!

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكار: ٢٧٥، ٢٧٧ .

ولهـذا الأمـر دلالـة هائلة على أهمـيـة القـراءة في الإسـلام خاصة، وفي حياة الإنسان عامة[١]. ولا حاجة بنا إلى إثبات أهمية القراءة، إلا أن الذي نريد الإشارة إليه في هذا المقام أن القارئ الواعي يضيف إلى خبرته خبرات الآخرين فيعيش حياته بشكل أعمق وأغنى:

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

وكـذلك الذي يعي أفكار الآخـرين يضـيف أفكاراً إلى فكره. وعندما سئل عبقري الفيزياء الأشهر نيوتن عن سرّ إنجازاته وتفوقه أجاب: لقد وقفت على أكتاف العمالقة الذين جاؤوا قبلي[٢]!! أي أنه قرأ ما كتبوا، وفهمه، واستفاد منه، وأضاف إليه.

قال العقاد[٣] رحمه الله في مقال له بعنوان: (لماذا هويت القـراءة): «أهوى القـراءة لأن عندي حيـاة واحدة في هذه

(١) ولفظه (القرآن) ذاتها التي هي عَلَم على خاتم الكتب تعني - فيما تعنيه - القراءة، فهي مصدر (قَرَأ) على وزن فُعلان، كغُفران وشُكران. انظر المعجم الوسيط: ٢ / ٧٢٩ .

(٢) التفكير علم وفن - هنري هازليت: ٢٧١ . (ترجمة حامد العبد - مكتبة الأنجلو المصرية).

(٣) أنا: ٨٥ ، بتصرف (ط. المكتبة العصرية - بيروت).

الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني.. والقراءة - دون غيرها - هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد: لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تُطيلها بمقادير الحساب».

وعند الحديث عن القراءة يثور سؤالان مهمان: ماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟ وللإجابة على السؤال الأول نقول: «إننا حين نقرأ نستثمر العقل والوقت في القراءة ولابد أن يكون هذا الاستثمار مربحاً بقدر المستطاع»[1]، فالعالم مملوء بالكتب التي يزيد غثُّها على سمينها فكيف نختار منها الأحسن والأجود؟

إن في كل علم من العلوم أو فن من الفنون أعلاماً نابهين مشهورين أسهموا فيه وأغنوه. وإذا مثلنا لذلك بما يعرفه الناس وأخذنا علم التفسير مثلاً، وجدنا من أعظم من كتب فيه الطبري وابن كثير، وإذا أخذنا علم الحديث، فمن منا لا يعرف صحيحي البخاري ومسلم؟ وإذا أخذنا المعاجم فهل ينسى أي دارسٍ للغة العربية معجمي: لسان العرب والقاموس

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكار: ٣٠ (دار القلم، والدار الشامية، الطبعة الأولى١٤١٣).

المحيط؟ وإذا ذُكر الشعراء فهل يفوت أحداً دواوين المتنبي، وأبي تمام، والبحتري، وأبي العلاء المعري؟ وهكذا... فمن الأنفع إذن أن نقرء للرواد في كل علم أو فن نريد دراسته أو الاطلاع عليه. وليس عسيراً معرفة هؤلاء، فالمتخصصون في كل علم يعرفون عظماء من كتبوا فيه.

وللإجابة عن السؤال الثاني: كيف نقرأ؟ نقول: القراءة أنواع أهمها: القراءة الجادة الواعية للكتب الأساسية، وهذه تحتاج إلى جهد، وتركيز، وتكرار، وغالباً ما يكون القارئ ممسكاً بالقلم ليضع خطاً تحت المهم من الأفكار، وللتعليق، والتلخيص، والإضافة، والاستفسار. وهذه القراءة هي التي تكوّن العلم، وأوضح أمثلتها الكتب المقررة على الطلاب في المدارس والجامعات.

وتأتي بعد ذلك **المطالعة** التي يقل فيها نصيب الجهد ويرتفع نصيب الاستمتاع، وتكون فيما سوى ذلك من الكتب، وأوضح أمثلتها قراءة الصحف والمجلات. وهكذا نجد من الكتب ما تستغرق قراءته الأيام الطوال والليالي، ولابد من العودة إليه مرة إثر أخرى، ومنها ما نصحبه سويعةً نقرأ فيها مقدمته، ونطّلع على فهرسه وخاتمته، ونقلب صفحاته لنقرأ

فيها ما يثير اهتمامنا، أو نحتاج إليه، ونكون بذلك قد تعرفنا على الكتاب فإما نتركه إلى غير رجعة، وإما نرجع إليه إذا دعتنا الحاجة إليه.

وهكذا نجد أن القراءة تُمدّنا بموادّ المعرفة والتفكير ولكنها وحدها لا تصنع منا مفكرين؛ لأن التفكير - كما قال جون لوك - «هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا»(١).

«ومن هنا فإن بعض المفكرين كان يتجه إلى تغليب التفكير على القراءة، وبعضهم يتّجه إلى تغليب القراءة على التفكير، ولكنّ من المتفق عليه أنه لابد من تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير، ويمكن أن نغلّب القراءة في البداية حتى نهيئ لعقولنا مادة التفكير، فالطاحون لا تصنع شيئاً دون وجود شيء تطحنه!..

«ومما يساعد على التفكير المركز أن ندوِّن الأفكار التي نحتاج إليها، أو تخطر لنا فيما يتعلق بموضوع تفكيرنا، ومن

---

(١) التفكير علم وفن - هنري هازليت: ١٣٣ . وفي هذا الكتاب عقد المؤلف فصلاً ممتعاً بعنوان: التفكير والقراءة من ص ١٣١ إلى ص ١٧٧ جديراً بالرجوع إليه.

الضروري مراجعة تلك الأفكار، حتى نبقي على مسارات تفكيرنا الأصلي، كيلا نبدأ باتجاه، وننتهي إلى اتجاه آخر»[(١)].

يقول هنري هازليت[(٢)]: «إن الكتابة ترتبط ارتباطاً متيناً بالتفكير، وهي عامل مساعد على التركيز. وبطؤها هو النقص الوحيد فيها، لكن مزيّتها المهمة هي أنها تحفظ الفكر. والأفكار سريعة الهروب؛ لذا كانت الطريقة المثلى لاقتناصها تقييدها بالكتابة عَقِبَ لمعانها في الذهن، إذ يجوز أن تضيع إلى الأبد...

«ولتسهيل كتابة أفكارك وتأملاتك أقترح عليك الاحتفاظ بدفتر صغير خاص بهذا الغرض، وأن تحمل معك دائماً قلماً وورقاً[(٣)] حتى تكون مستعداً دائماً لتدوين ما يحتاج التدوين بسرعة واختصار».

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكّار: ٣٢ - ٣٤ بتصرف.

(٢) التفكير علم وفن: ١٧٩ - ١٨١ بتصرف.

(٣) قال الشاعر العربي:

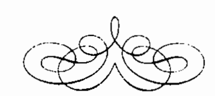
لابُدَّ للطالب من كناش يكتب فيه قاعدا أو ماشي

وجاء في المعجم الوسيط (٢ / ٨٠٧): الكُناشة: الأوراق تُجعل كالدفتر تُقيد فيها الفوائد والشوارد.

سئل ابن تيمية - رحمه الله - عن بعض الكتب المهمة لتُقرأ ويُنتفعَ بها، فكان مما قال:

«وقد أوعبت الأمة في كل فنٍّ من فنون العلم إيعاباً. فمن نوّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً..»[(١)].

بعد هذا نأتي للحديث عن بعض أخطاء التفكير التي يساعدنا اجتنابها على الوصول إلى التفكير السديد.



(١) مجموع الفتاوى: ١٠ / ٦٦٥ (جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد العاصمي - الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ).

من أخطاء التفكير

١ ـ إساءة التعميم، أو التسرع في الاستنتاج:

«المقصود بالتعميم: هو العبارة التي تقرر انطباق حكم ما على جميع أفراد المجموعة»[(١)].

«والمفكر الجيد ليس معللاً أو مفسراً جيداً فحسب، بل هو مُعَمِّمٌ جيد... إن التعميم - أو صياغة القانون - نمط من التفكير كنمط التعليل، والعناصر فيهما واحدة، بيد أنها تختلف في ترتيبها. فالتعليل يضع النتيجة أو حصيلة الملاحظة، ثم يبحث لها عن قاعدة تحتويها. أما التعميم فيأخذ حصيلة الملاحظة ويجعلها حالة، أو جزئية، ينتقل منها إلى صياغة قاعدة عامة تنطبق عليها وعلى مثيلاتها... ولعل أشد أنواع التفكير السيئ ضرراً في عالمنا هو إساءة التعميم.. وجانب كبير من التربية قوامه أن يعلّمنا كيف نُحسنُ التعميم، ونميّز صحيح التعميمات من سقيمها، وإلا ازدحمت أذهاننا بقواعد خاطئة لا يمكن الركون إليها»[(٢)].

---

(١) الطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر: ٤٩ (ترجمة د. عطية محمود هنا - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦١).

(٢) التفكير السديد - جوزيف جاسترو: ٣٧ - ٣٩ بتصرف.

ويقدم علماء التربية نصيحتين مهمتين لمن يريد التعميم - أو صياغة قاعدة أو قانون - حتى يكون أقرب ما يكن من الحقيقة، هاتان النصحيتان هما:

١ ـ افحص عدداً كافياً من أفراد النوع أو المجموعة التي تريد أن تصدر بشأنها حكماً عاماً.

٢ ـ تأكد من أن الأشياء التي تفحصها تمثّل النوع أو المجموعة أفضل تمثيل[١].

يقول جوزيف چاسترو[٢]: «إنك ما لم تضع القواعد لا تستطيع أن تعمل شيئاً، ولا أن تستعمل الأشياء في معيشتك اليومية. فأنت - مثلاً - تكوّن في ذهنك قاعدة عامة أن المعادن ثقيلة، فحينما تهمّ برفع ما تخبرك عيناك أنه حديد، أو نحاس، أو رصاص تتعود حشد مجهود كبير من عضلاتك. حتى إذا رفعت ذات مرة إناءً من الألمنيوم أدهشك أنه خفيف؛ لأنك كنت تتوقع أنه ثقيل، ودهشتك هذه دليل على أنه كانت لديك قاعدة سابقة بخصوص ثقل المعادن عامة.

---

(١) الطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر: ٥٢ .

(٢) التفكير السديد: ٤٠ - ٤١ بتصرف.

«وهذا المثال يفضي بنا إلى خطوة أخرى؛ لأنك في الواقع استخدمت شيئاً زائداً على التعميم، استخدمت نَمَطاً من التفكير كما يلي:

«أنت - أولاً - وصلت إلى قاعدة مفادها أن المعادن ثقيلة عموماً، وذلك عن طريق الملاحظة نتيجة لتجاربك مع الحديد، والنحاس، والرصاص. واستنتجت كذلك أن الألمنيوم ينبغي أن يكون ثقيلاً؛ لأنه معدن، ثم تبين لك أنه مخالف للقاعدة. فأنت قمت بتطبيق القاعدة التي لديك، وهذا التطبيق هو النمط الثالث للتفكير، فأنت إذن تفسر، وتعمم، وتطبق، وتنتقل بين هذه الأنماط الثلاثة في التفكير جيئة وذهاباً.. وفي علم المنطق يسمى النمط الأول: الفرض، والثاني: الاستقراء والثالث: القياس.

«ولا ينبغي الاعتقاد بأن هذه الأنماط الثلاثة هي كل ما في ميدان الفكر... فهناك أشكال كثيرة تنجم عن امتزاج هذه الأنماط الكبرى في عمليات التفكير، فهي لا تظهر على نقائها إلا في العلوم والمعامل... أما العقل العامي فيستخدم هذه الأنماط مختلطة، ويتفاوت في القدرة والدقة، ولهذا يتفاوت في القرب من الحق، أو البعد عنه».

«ومن الأخطاء المتصلة بهذا النوع من التفكير اتصالاً وثيقاً ما يوضحه المثال التالي: إن التوتر والإجهاد يسببان السرطان، فإن السيدة (الفلانية) أصيبت بالسرطان بعد أن أجريت لها عملية المرارة، أما (فلان) فقد أصيب بهذا المرض بعد وفاة زوجته بأربعة أشهر، في حين أن آخر أصيب به بعد أن صدمته سيارة بفترة وجيزة، فلابد أن هناك علاقة ما بين السرطان والصدمات النفسية التي يتعرض لها الناس.

«مثل هذا النوع من التسرع في التفكير يمكن أن يسمى: البرهان عن طريق اختيار الأمثلة، فلا شك أن بضعة أمثلة من ملايين الحالات لا يمكن أن تعتبر دليلاً حقيقياً. إن الأمثلة القليلة لا تزودنا إلا بأساسٍ لنظرية معقولة، أو مجرد تخمين للصلة بين الأشياء. هذه الصلة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، وتدرس جيداً، ومع ذلك فإن الكثيرين من الناس يتسرعون في الوصول إلى نتائج اعتماداً على عدد قليل من الأمثلة»[١].

(١) التفكير الواضح - هاي روتشليس: ١٢٣ . (ترجمة لطيف دوس - دار نهضة مصر ١٩٦٨).

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي[١]:

«ليس من المتيسر للإنسان أن يفكر تفكيراً سليماً في موضوع ما دون أن تكون لديه البيانات الكافية، والمعلومات الضرورية المتعلّقة بالموضوع الذي يفكر فيه، ولا يستطيع أن يصل بتفكيره إلى نتيجة سليمة دون أن تتجمع لديه الأدلة والبراهين الكافية التي تؤيد صحة ما يصل إليه.. والعلماء والحكماء يتحرجون أشد الحرج في إبداء آرائهم، أو إصدار أحكامهم دون أن تكون لديهم الأدلة الواضحة البينة التي يستندون إليها فيما يصدرون من آراء وأحكام.

«وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية المعرفة بالموضوع في الوصول إلى الحق فيه فقال: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾**[٢]. وقال: **﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾**[٣]، أي: بغير دليل وحجة[٤].

---

(١) القرآن وعلم النفس: ١٥٠ بتصرف (دار الشروق – ط٥ – ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م).

(٢) الحج: ٨ . (٣) غافر: ٣٥ .

(٤) تفسير ابن كثير: ٤ / ٨٦ (ط. دار المعرفة – بيروت ١٩٨٧م).

ومما يتصل بهذا الموضوع عدم اطلاعنا على حجج المخالفين، وهو في الحقيقة عدم استيفاء البحث محلِّ النظر، وعدم إعطائه حقّه من النظر والتأمل والدراسة. ويتصل بهذا ـ أيضاً ـ أن لا نأخذ رأي غيرنا إلا من كلامه أو كتبه. وسبب وقوعنا في هذا الخطأ: إما الهوى، وإما الجهل بأصول البحث، ولو اطلعنا على حجج المخالفين لوجدنا في عدد من الحالات أن الاختلاف بين الرأيين ليس اختلافاً بين خطأ وصواب كما كنا نعتقد أو (نظن)، إنما هو بين راجح ومرجوح (أيضاً: من وجهة نظرنا، وحسب علمنا، وعقلنا، وفهمنا).



٢ ـ الخطأ في استعمال التفكير النظري:

المراد بالتفكير النظري هو التفكير الذي يبحث عن الحقائق النظرية ويحاول أن يبرهن عليها. وهو تفكير محترم لازم حتى في صياغة النظرية العلمية والبرهان عليها في بعض الأحيان. ولكنه لا يغني عن (التفكير العملي) في المجالات التي لابد لنا فيها من الحصول على الحقائق والمعلومات.

فنحن نستطيع - مثلاً - أن نبرهن «نظرياً» على أن العدد (٣) هو الجذر التكعيبي للعدد (٢٧) لكننا لا نستطيع أن نحدد متوسط عدد الوجبات التي ينبغي أن نقدمها للطفل الرضيع بمجرد التفكير النظري، دون التجربة والمشاهدة لعدد كاف من الأطفال.

وكثير من الناس يكوّنون آراءً ومعتقدات يدافعون عنها بشدة بمجرد التفكير النظري البعيد عن التجربة والواقع، في حين لا بد لهم لتكوين الرأي الصحيح عنها من معلومات صحيحة منطبقة على الواقع.

ولعل ميدان السياسة هو من أصح الأمثلة على صدق ما نقول. فأنت تجد الاختلاف في وجهات النظر السياسية

محتدماً على أشدّه بين الناس، وتجد كل طرف يدلي بحججه ويتكلم بثقة وقوة، ويشرح موقفه من الدول، والأحزاب، والرؤساء، والزعماء.. موافقاً أو مخالفاً، وكأنه وزير خارجية لدولة كبرى، وفّرت له المعلومات الصحيحةَ أجهزة مشهود لها بالكفاية والثقة. فإذا سألته عن مصادر معلوماته ومن أين أعطاها هذه الثقة وجدت أنها تقديراتٌ نظريةٌ واستنتاجاتٌ عقلية بحتة، والجانبُ العملي فيها مستقى بشكلٍ أبتر من مصادرَ إعلاميةٍ لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها وصدقها إلا بشكل جزئي.

يقول روبرت ثاولس[١]: «ثمة خطأ يقع فيه الإنسان بسبب الإخفاق في فهم العلاقة بين الكلمات والوقائع، وهذا الخطأ هو استعمال النظر العقلي أو التفكير النظري في حل المشكلات التي لا يمكن حلها إلا عن طريق المشاهدة وتفسير الوقائع. ففي كثير من المسائل التي نريد الفصل فيها نجد أنه من الصعب جداً الحصول على معرفة تامة دقيقة بالوقائع ذاتها، ولهذا فإننا نجد في هذه الحالة ما يغرينا على أن

---

(١) التفكير المستقيم والتفكير الأعوج: ٩٧ وما بعدها، بتصرف.

نصدر أحكامنا دون الاستناد إلى الوقائع الضرورية. بل قد نجد ما يغرينا على الظن بأن التفكير الدقيق - على الرغم من عدم وجود الوقائع الضرورية - كافٍ بحد ذاته لسد حاجاتنا...».

«والاعتقاد بأن الإنسان قادر على استنباط شيء ما عن الحقائق أو الوقائع بالنظر العقلي وحده وهمٌ من أقدم الأوهام في التفكير البشري. فالروح المعادية للعلم هي التي تحاول دوماً صرف الناس عن دراسة الواقعة، ودفعهم إلى نسج نظريات وهميةٍ خياليةٍ نابعةٍ من أذهانهم وحدَها، وهي الروح التي يجب على كل واحد منّا أن ينبذها من ذهنه؛ لأن إتقان فن التفكير ليس إلا البداية في فهم الواقع، ودون الحصول على الحقائق الواقعية الصحيحة يسوقنا تفكيرنا إلى الخطأ والضلال».

«ويمكننا أن نميز - كنوع خاص من التفكير الأعوج - محاولة الحصول على معرفة بالواقع عن طريق التفكير النظري. وهذه المحاولة تحدث في أي حجة تحاول استخلاص (ما هو كائن) مما يعتقد المتكلم أنه (يجب أن

٣ ـ الاعتماد على مصادر غير صحيحة:

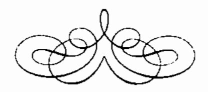
أشرنا في الفقرة السابقة إلى أن (الرأي أو الحكم الصحيح يعتمد على معلومات صحيحة). وهذا أمر بدهي، ولكن كم من الناس الذين يوافقون عليه يعتمدونه، أو يطبقونه في عالم الواقع؟

إن أكثر مصادر معلوماتنا ليست جديرة بالاعتماد عليها: **فنحن نكوّن آراءً نؤمن بها، ونتخذ مواقف نتعصّب لها، إذا بحثنا عن مصدرها وجدناه صحيفة سيارة، أو مجلة غير متخصصة، أو حديثاً إذاعياً سمعناه لا نعرف من أعدّه، أو كتاباً لا نعرف عن مؤلفه شيئاً! بل نحن نبني بعض عقائدنا على أحاديث نبوية شريفة نظنها صحيحة، وإذا بها بعد النظر والتمحيص، إما ضعيفة، وإما لا أصل لها**[١]. مع أن التوجيه النبوي الأرشد يدعو إلى التثبت في الرواية عن النبي المصطفى ﷺ: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من**

(١) كثير من الناس يروون قول القائل: «**سؤر المؤمن شفاء**» على أنه حديث نبوي شريف، والواقع أنه كلام مردود، وليس بحديث. انظر: كشف الخفا - إسماعيل بن محمد العجلوني: ١ / ٥٥٥ (مؤسسة الرسالة - تصحيح وتعليق أحمد القلاش ط ٣:١٤٠٣هـ).

يكون)، في أي نقاش يحاول المشترك فيه استنباطَ نتائج عن الحقائق الواقعة من استعمال الكلمات ليس غير.

«ولا نكران أن التفكير النظري له موضع مشروع حتى في التفكير بالأمور الواقعية، وهو الإيحاء بإمكاناتٍ أو احتمالاتٍ جديدة. وعلى ذلك فقد نستعمل طريقة التفكير النظري بشكلٍ سليمٍ في اقتراحِ ما قد يكون، أو ما يُحتمل أن يكون، ولكن ليس في استنباط ما هو كائن».



٣ـ الاعتماد على مصادر غير صحيحة:

أشرنا في الفقرة السابقة إلى أن (الرأي أو الحكم الصحيح يعتمد على معلومات صحيحة). وهذا أمر بدهي، ولكن كم من الناس الذين يوافقون عليه يعتمدونه، أو يطبقونه في عالم الواقع؟

إن أكثر مصادر معلوماتنا ليست جديرة بالاعتماد عليها: فنحن نكوّن آراءً نؤمن بها، ونتخذ مواقف نتعصّب لها، إذا بحثنا عن مصدرها وجدناه صحيفة سيارة، أو مجلة غير متخصصة، أو حديثاً إذاعياً سمعناه لا نعرف من أعدّه، أو كتاباً لا نعرف عن مؤلفه شيئاً! بل نحن نبني بعض عقائدنا على أحاديث نبوية شريفة نظنها صحيحة، وإذا بها بعد النظر والتمحيص، إما ضعيفة، وإما لا أصل لها[١]. مع أن التوجيه النبوي الأرشد يدعو إلى التثبت في الرواية عن النبي المصطفى ﷺ: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من**

---

(١) كثير من الناس يروون قول القائل: «**سؤر المؤمن شفاء**» على أنه حديث نبوي شريف، والواقع أنه كلام مردود، وليس بحديث. انظر: كشف الخفا - إسماعيل بن محمد العجلوني: ١ / ٥٥٥ (مؤسسة الرسالة - تصحيح وتعليق أحمد القلاش ط ٣: ١٤٠٣هـ).

النار»[١]، والتحذير القرآني الأحكم يُهيب بالمسلم ألا يتسرع في الرواية: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[٢].

قال ابن الجوزي[٣]: «قفا، يقفو الشيء: اتّبع أثره. والمعنى: لا تقلْ: رأيتُ، ولم ترَ، ولا: سمعتُ، ولم تسمع» «ولمَ عزمتَ على ما لم يحلُّ لك العزمُ عليه»[٤].

وقد اعتنى علماؤنا القدامى - رحمهم الله - بالإسناد أيمّا عناية، حتى قالوا: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[٥]. وتراهم يذكرون أسانيدهم فيما يروون، ليس في كتب الحديث والتاريخ فحسب، بل حتى في كتب

---

(١) حديث متواتر، رواه البخاري ومسلم وغيرهما. قال ابن الجوزي: رواه عن النبي ﷺ ثمانية وتسعون صحابياً، منهم العشرة المبشرون بالجنة، ولا يعرف ذلك في غيره. انظر: كشف الخفا - العجلوني: ٢ / ٣٦١ .

(٢) الإسراء: ٣٦ .

(٣) زاد المسير: ٥ / ٣٤ (المكتب الإسلامي - ط٣ - ١٤٠٤هـ). وانظر: تفسير الفخر الرازي: ٢٠ / ١٦٨ .

(٤) الكشاف - الزمخشري: ٢ / ٦٦٧ .

(٥) قول الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله. انظر كتاب: الإسناد من الدين - عبدالفتاح أبو غدة (الطبعة الأولى): ١٦ - ١٧ . والإسناد: حكاية طريق متن الحديث، أي: الرجال الذين رووا نصّ الحديث.

الأدب، والأخبار والأشعار. ووضعوا لذلك الاصطلاحات الدقيقة: فإن قال أحدهم: حدثنا فلان، فالمراد: سمعت مع غيري من لفظ الشيخ، وإن قال: أخبرنا، فالمراد: قُرئ على الشيخ وأنا حاضر فأقرّ بذلك. وقد وضعوا لقبول الأحاديث والاطمئنان إليها ضوابط غايةً في الدقة، محل النظر فيها كتب علم مصطلح الحديث. لكن يحسن - في هذا المقام - إيراد ما عرّفوا به الحديث الصحيح، فإنه يصلح أن يُتخذ قاعدة على أساسها نقبل الأخبار أو نردها. قالوا: «الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط، عن مثله، إلى منتهاه، من غير شذوذ ولا علة قادحة».

ومعنى اتصال السند: أن كل راوٍ من رواته قد أخذه مباشرةً عمّن فوقه، من أول السند إلى منتهاه.

وعدالة الراوي تعني: أنه مسلم، بالغ، عاقل، غير فاسق، وغير مخروم المروءة.

والمراد من الضبط: أنّ كل راوٍ من رواته تامُّ الضبط سواءٌ حدَّث من حفظه أو من كتابه.

والشذوذ: هو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه. والعِلّة سبب غامض خفي يقدح في صحة الحديث، مع أن الظاهر السلامة منه[١].

ولا شك أن المرء لا يستطيع أن يُخضع كلَّ المعلومات التي يحتاج إليها إلى هذا المعيار الصارم، ولكنه - على الأقل - يتريث في قبولها وتصديقها، ويصنّفها بحسب أهميتها، فالمهم لابد من التأكد من صحته، وما سوى ذلك، فعلى درجات متفاوته، كلٌّ بحسبه.

ويظن بعض الناس أن المرءَ إذا بدأ حديثه بألفاظ لا تفيد القطع، (مثل: سمعتُ من بعض الناس، أو: قيل لي، أو: يزعم بعضهُم.... إلخ) فهو ناجٍ من الملام، والواقع أن الأمر ليس كما يظن. فقد أخرج الإمام أبو داود في سننه[٢]، (في كتاب

(١) انظر: تيسير مصطلح الحديث - د. محمود الطحان: ٣٣-٣٤ . (مطبعة المدينة - الرياض - ط١: ١٣٩٦). والمروءة: آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات. وخوارمها هي الأمور التي تناقضها، أو تُسيء إليها. إذ من معاني (خَرَمَ): شقّ، وثقب، وقطع. ومثال خوارم المروءة: البول في طرق الناس، والمجيء إلى العمل بملابس النوم... وهي - في الجملة - أمور تتغير بتغيّر الأزمنة والأمكنة والأعراف.

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود: ١٣ / ٢١٤، وفيض القدير شرح الجامع الصغير - محمد عبدالرؤوف المناوي: ٣ / ٢٨٠ (ضبطه وصححه أحمد عبدالسلام - مكتبة عباس أحمد الباز - مكة المكرمة).

الأدب: باب في الرجل يقول: زعموا) قول ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس مطية الرجل زعموا[١]». أي: أسوأ عادة للرجل أن يتخذ لفظ (زعموا) مركباً إلى مقاصده، فيخبر عن أمر تقليداً من غير تثبّتٍ فيخطئ، ويجرب عليه الكذب. والمقصود أن الإخبار بخبر مبناه على الشك والتخمين دون الجزم واليقين قبيح، بل ينبغي أن يكون لخبره سند وثبوت، ويكون على ثقة من ذلك، لا مجرد حكاية على ظن وحسبان. وفي المثل: (زعموا) مطية الكذب.

ومما يحسن ذكره في هذا المقام ليعلم القارئ الكريم ما كان عليه الأئمة الأعلام من دقة في الاستيقان من المصادر التي يستقون معلوماتهم منها، قول إمام أهل المدينة مالك بن أنس رحمه الله:

«إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم. لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول ﷺ، (يعني من رواة الحديث الشريف)، عند هذه الأساطين (وأشار إلى أعمدة المسجد النبوي). فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن

---

(١) جاء في المعجم الوسيط: زَعَم: ظنّ. وأكثر ما يستعمل الزعم فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب. وزعم: قال، وكذب، ووعد.

على بيت مالٍ لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل الشأن (أي: أهلاً للرواية). وقدم علينا ابنُ شهابٍ الزُّهري فكنا نزدحمُ على بابه، (أي: لنسمع منه روايته لحديث رسول الله ﷺ، لأنه كان إماماً في هذا الشأن)».

وكان - رحمه الله - يقول: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممّن سواهم:

«لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يَعْرف ما يَحمل، وما يُحدّث به»[١].



(١) الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء - ابن عبدالبر - تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة: ٤٦ .

٤ ـ تدخل الهوى (أو العواطف) في الحكم:

عرّف الراغب الأصفهاني[(١)] الهوى فقال: «الهوى: ميل النفس إلى الشهوة. وقيل سُمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية...». وعرّفه الشريف الجرجاني[(٢)] بأنه «ميلان النفس إلى ما تستلذّه الشهوات من غير داعية الشرع».

وقد ذمّ القرآن الكريم اتّباع الهوى، وبيّن أنه يُضلّ صاحبه عن الحق والصواب، بل قد يدفعه إلى التكذيب بالحقّ استكباراً وعناداً، وربما حمله على ارتكاب جريمة القتل، وفيما يلي بضعة آيات كريمات لا تحتاج إلى تعليق:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(٣)].

﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[(٤)].

---

(١) المفردات: ٥٤٥ .
(٢) التعريفات: ٢٧٨ .
(٣) ص: ٢٦ .
(٤) الكهف: ٢٨ .

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[١].

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٢].

وقال تعالى مخاطباً بني اسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[٣].

ويسمّي بعض المفكّرين الغربيين الهوى بـ (التحيّز)، ويعرّفون التحيّزات بأنها «طرق في التفكير تقررها سلفاً قوىً ودوافع انفعالية شديدة، كالتي يكون مصدرها منافعنا الذاتية الخاصة، أو ارتباطاتنا الاجتماعية»[٤].

---

(١) الفرقان: ٤٣ .

(٢) المؤمنون: ٧١ .

(٣) البقرة: ٨٧ .

(٤) التفكير المستقيم والتفكير الأعوج - روبرت هـ . ثاولس: ١٨٣ وانظر في الموضوع نفسه: التفكير علم وفن - هنري هازليت ١٠١ - ١٢٤ بعنوان: التحيز والشك، وفصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكّار: ٦٦ - ٧٠ بعنوان: التجرد من الأهواء. والتفكير العلمي - د. الدمرداش سرحان و د. منير كامل: ١٦٨ - ١٦٩ بعنوان: الوقوع تحت تأثير الانفعالات الشديدة والعواطف الجامحة. والتفكير الواضح - هاي روتشليس: ١٣٢ - ١٣٣ بعنوان العاطفة والتفكير. والطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر: ١٠٥ - ١٠٧ بعنوان المشاعر القوية.

يقول جوزيف جاسترو[١]: «إن التفكير الصحيح فنٌّ عسير على الكثيرين لسببين على الخصوص: الأول: أن عقولاً كثيرة ليس لديها الكفاءة لهذه المهمّة... والثاني: هو تدخل الانفعالات والعواطف... فكثيراً ما نقبل، أو نصل إلى نتيجة تحت تأثير رغبةٍ، أو أمل، أو خوف... وهذا هو الهوى..».

«إن الهوى هو الحكم على شيءٍ مُقدّماً. في أثناء عملية الاستدلال يجعلنا الهوى نتجاهل بعض الوقائع، ونبالغ في تقدير بعضها الآخر، ميلاً منا نحو نتيجة معينة موضوعة في ذهننا منذ البداية»[٢].

«إن عراقيل التفكير ليست واضحة كعراقيل الكلام. والمفكر نفسه قد لا يَفْطَنُ لوجود عراقيل في تفكيره، كما يجهل المصاب بعمى الألوان حقيقة آفته إلى أن يكتشف - مع الزمن - أن الناس من حوله يرون الأشياء على خلاف ما يراها.

---

(١) التفكير السديد: ١١٥، ١٢٠ - ١٢١، ١٢٩ بتصرف.

(٢) يعبّر ثاولس (١٨٧) عن هذه الفكرة بقولة: «إننا نكون تحت تأثير الهوى والتحيز ميالين إلى تصديق ما نرغب في تصديقه، أو نحتاجه أن يكون صحيحاً، وإلى إنكار ما نرغب في إنكاره أو ما نحتاجه أن يكون باطلاً».

«وليس من الضروري أن يكون الهوى فِجّاً، غليظاً، واضحاً للعيان، بل قد يكون دقيقاً خفياً، فإن الأهواء على دجات متباينة، ويمكن أن تتسرب إلى التفيكر من مستويات كثيرة. ومعرفة خطر الأهواء نافع في الاحتياط منها في خطوات تفكيرنا المنطقية».

وقديماً أشار الشاعر الحكيم إلى قريب من هذا المعنى فقال:

وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ

ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي[1] تحت عنوان: (التحيّز الانفعالي والعاطفي): «بينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة في علم النفس حدوث أخطاء في التفكير نتيجة التحيّز الانفعالي والعاطفي؛ ففي إحدى هذه التجارب قُدمت إلى مجموعة من الطلبة بعض البراهين القياسية، وطلب منهم أن يبينوا ما إذا كانت النتيجة تعتبر منطقية من المقدمتين المستخدمتين في القياس. وكان نصف هذه البراهين القياسية يتعلق بأمور الحياة العادية، ونصفها الآخر

---

(١) القرآن وعلم النفس: ١٥٣ ، ١٥٤ .

يتعلق بأمور من شأنها أن تثير الانفعال؛ وتبيّن من نتائج هذه التجربة أن جميع الطلبة وقعوا في عدد من الأخطاء في البراهين المثيرة للانفعال أكثر من عدد الأخطاء التي وقعوا فيها في البراهين الأخرى العادية غير المثيرة للانفعال. وتوضح نتائج هذه التجربة أن حالتنا الانفعالية والعاطفية تؤثر في تفكيرنا، وتميل به إلى التحيّز، والوقوع في الخطأ فيما نصدره من أحكام».



٥ ـ المبالغة في التبسيط:

يُروى عن إميرسون أنه قال: ما أشقُّ عملٍ في العالم؟ وأجاب: إنه التفكير! فلا غرابة إذن أن يميل الناس - بدافع الكسل النفسي والعقلي - إلى تبسيط الأمور المعقدة، وتلخيص الكتب المطوّلة، وحلّ المشكلات العويصة بجملة سهلة الفهم، سهلة الحفظ!.

لا يخفى على أحد - اليوم - ما نزل بالمسلمين من محن، وما انحدروا إليه من دَرَك، وما يعانونه من مآسٍ ومشكلات آخذ بعضها برقاب بعض. ولا يفتأ المخلصون الغيورون يتساءلون: ما الحلُّ، وما وسيلة الإنقاذ؟ ويأتيهم الجواب المبسط الذي لا يحتاج إلى أدنى قدرة عقلية: إنه العودة إلى الإسلام! أما كيف يكون هذا، وما الخطوات العملية لتحقيقه على أرض الواقع، فلا يكلف أحد نفسه بالخوض فيه، لأنه الجانب العميق العويص من الجواب!.

ولو كان أولئك البسطاء على حقّ لنزل القرآن جملة واحدة، ولما احتاج الرسول ﷺ إلى ثلاثٍ وعشرين سنة من الكدح، والتعب، والجلاد، والكباد، والجهاد، ليستقر الإسلام في النفوس، ولتقوم دولته في الأرض. لكنّ الله سبحانه أعلم

بنفوس خلقه، ورسوله الحكيم المجتبى يعلم أن النفوس لا يسلُسُ قيادها، ولا تتغيّر طبعها وأفكارها بين عشية وضحاها، وأن تربيتها أعقد وأصعب من أن تتم بإصدار مجموعة من التعليمات المبسطة والأوامر اليسيرة.

إن المريض بالبدانة يعلم أن عليه اتباع نظامٍ غذائي صحيح ليشفى من مرضه، ولكن المختص هو الذي يرسم له ذلك النظام بالتفصيل ويغيّره بعد فترة معينة إذا اقتضى الأمر التغيير، ويراقب صحته فى أثناء اتباعه لذلك النظام.

يقول ثاولس(١): «إن المسائل المعقدة حول الحقائق الواقعية لا يمكن إيفاؤها حقّها من القول في معظم الحالات، والإعرابُ عنها بكلمات قليلة.. وأكثر الناس لا يُعنون بالتعقيدات، ولا يأخذونها في الحسبان، وإنما يشعرون بأنهم واقفون على القضية وقوفاً تاماً، وأنهم ألمّوا بها إلماماً تاماً إذا هم استطاعوا أن يضعوا مسألة معقدة في قالب بسيط... من ذلك - مثلاً - نظرية أينشتاين في النسبية تحوّلت إلى مجرّد عبارة بسيطة: (كل شيءٍ نسبي)!! ولُخصت أيضاً على هذه الصورة نتائج

---

(١) في كتابه: التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، تحت عنوان: التبسيط المسرف في التفسير: ٢٠٣ - ٢١٤ بتصرف.

الأبحاث العلمية المعقّدة في التغذية حول القيمة الغذائية لمخُتلف أصناف الأكل بعبارات مثل: (الحليب مغذٍّ) و(المربى يحوي سعرات حرارية) و(الخسّ غني بالڤيتامينات).

«والحقيقة أن لأمثال هذه العبارات مزيةً علميةً كبيرةً، وهي أنها سهلة الحفظ، وسهلة الانتقال من شخص إلى آخر؛ ولذا فإن من السهل أن يتعزز الإيمان بها بقوة الإيحاء، فإن شاعت عبارة، وتنوقلت بين الناس أصبحت (شعاراً) له مفعول في سلوك عدد كبير من الناس وفي توجيه هذا السلوك وجهة معينة. وليس استعمال الشعار وسيلة للتأثير في سلوك الناس شيئاً منافياً للحكمة بحكم الضرورة. فالزعيم الحاذق- مهما كانت عملياته الفكرية معقدة- يحتاج في الإعراب عن مذهبه إلى صيغ مبسّطة لتكون مقبولة على نطاق واسع... ولكن الخطر يكمن في أن تصبح هذه الصيّغ المبسطة قواعد تحكم التفكير.

«ومن طرق التفكير الشائعة ما يتجلى في مثل قولنا: (لكل واحدٍ من الجانبين ما يؤكد حجته؛ ولذلك فإني لا أستطيع أن أعطي رأياً في الموضوع، أو لا أستطيع أن أتخذ موقفاً). ومثل هذه العبارات تصدر عن أناس أذكياء يتحاشون الوقوع في مهاوي التفكير المبسط، لكنّ إحجامهم عن اتخاذ

الموقف أو القيام بعمل هو بنفسه هوة لا تقل خطراً عما فرّوا منه. ولنطلق على هذا الإحجام عبارة (الانسلاخ النظري أو الأكاديمي عن الحياة العملية).

«ومع ما قدّمنا فلا مناص لنا من اتخاذ موقف، أو القيام بعمل مُجدٍ في مناصرة الجانب الذي نرى أن له حججاً أصحّ وأصدق. ولنعط مثالاً يوضح هذا الرأي. لو كنا نسوق سيارة في ساحة مكشوفة ممتدة، واعترض سبيلنا عارض، فإنّ بالإمكان تجنبَ هذا العارض بالانعطاف إما يمنة وإما يسرة. والحجج للاتجاه في كلا الجانبين يمكن أن تكون متسارية، ولكن لابد لنا من اختيار أحدهما دون أن نسمح لحجج الآخر الممتازة أن تؤثر في قرارنا، ولو اكتفينا بالقول: إن لكل من الاتجاهين حججاً تؤيده، واستمررنا في قيادة السيارة إلى الأمام، فإننا نعرض أنفسنا إلى خطر محقق قد يودي بحياتنا..

«إن التفكير المبسط له بعض النفع في النواحي العملية، إلا أنه في واقع الأمر قد يكون عقبة في سبيل التفكير المستقيم. فإذا كان الغرض الذي نرمي إليه هو الحقيقة، وليس الكسل أو المصلحة الخاصة، فالواجب علينا ألا نسمح به» لما له من سلبيات كبيرة في المدى البعيد.

٦ ـ الخلط بين التقدير والتقديس:

احترام الكبراء والعلماء والفضلاء وتقديرهم أمر منسجم مع الفطرة السليمة، ودعت إليه الشريعة الحكيمة؛ فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن من إجلال الله: إكرامَ ذي الشَّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»[١]، وقال: «**ليس منا من لم يرحمْ صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»[٢]. لكنّ الاحترام والتقدير شيء، والمبالغة في الاحترام إلى درجة التقديس شيء آخر.

وواقع كثير من المسلمين اليوم أنهم يقدسون بعض أئمتهم، أو علمائهم، أو مشايخهم، ويصلون بهم إلى درجة قريبة من العصمة: فلا يخطر ببالهم أن هؤلاء العلماء قد أخطؤوا، ولا يرضون أن ينتقدهم أحد انتقاداً علمياً، بنَّاءً، قائماً على أسس الإنصاف، والاحترام، والبحث عن الحقيقة. وفي الوقت ذاته لا يجدون حرجاً في تخطئة الأئمة أو العلماء

(١) رواه أبو داود رقم ٤٨٤٣ وحسنه النووي، والعراقي، وابن حجر.

(٢) رواه أبو داود رقم ٤٩٤٣، والترمذي رقم ١٩٢١ وقال: حسن صحيح. كما رواه الإمام أحمد والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، انظر في هذين الحديثين تخريج الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط لأحاديث جامع الأصول: ٦ / ٥٧٢، ٥٧٤ (طبعة عام ١٣٩١ / ١٩٧١).

الآخرين، الذين يحظون بالقدر ذاته من الاحترام والتقديس من قبل جماعات أخرى، أو في أماكن أخرى.

هذا (التعصب) هو واحد من الحجب التي تحجب الحقيقة عن الباحث عنها، وأحد موانع التفكير السديد الذي نحن بصدد الحديث عنه لتحصيله والوصول إليه.

كلنا نذكر في غزوة بدر الكبرى - عندما نزل رسول الله ﷺ عند أدنى ماءٍ من مياه بدر - قولَ الحباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة. فقال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فنهض رسول الله ﷺ، وتحول إلى المكان والرأي اللذين أشار بهما الحباب رضي الله عنه[1].

(١) انظر: فقه السيرة - د. محمد سعيد رمضان البوطي: ٢١٥، والحاشية التي توثق سند هذه القصة (دار الفكر - ط٨: ١٤٠٠هـ)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - د. مهدي رزق الله أحمد: ٣٤٥ (ط١: ١٤١٢ / ١٩٩٢)، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د. محمد أبو شهبة: ١٣٤ (دار القلم، ط١: ١٤٠٩ / ١٩٨٨).

والعبرة من هذه القصة أن ثقة الحباب بن المنذر رضي الله عنه برسول الله ﷺ، واحترامه الكامل له لم يكونا حاجزاً يمنعه من إبداء رأيه الذي خالف فيه اجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام، الأمر الذي لا يجرؤ عليه الكثيرون من أتباع الكبراء، وتلاميذ العلماء، ومريدي الفضلاء، فيعطونهم بذلك منزلة أعلى مما أعطى الحباب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ!!!

وأضرب على هذه الفكرة مثالين آخرين لأهميتها:

الأول: مناقشة بعض الصحابة رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ يوم الحديبية بعد كتابة وثيقة الصلح مع قريش. ومختصر ذلك: أن مشركي مكة شرطوا على رسول الله عليه الصلاة والسلام أن من جاءه مسلماً منهم يُردّ إليهم! «فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سُهيل ابن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.. وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله. فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبيَّ الله ﷺ، فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيّة في ديننا إذاً؟! قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت:

أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العامَ؟ قال: قلتُ: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. ثم ذهب عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له الكلام نفسه، فردّ عليه بردّ رسول الله ﷺ[1]. قال عمر رضي الله عنه: «ما زلت أصوم وأتصدق، وأعتق، من الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوتُ أن يكون خيراً»[2].

الثاني: أرسل النبي ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه قائلاً له: «اذهب بنعليّ هاتين، فمن لقيتَ وراءَ هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة». فردّه سيدنا عمر رضي الله عنه ومنعه، فسأله النبي ﷺ: «يا عمر، ما حملك على مافعلت؟» قال عمر: فلا تفعل؛ فإني أخشى أن يتّكل الناس عليها، فخلِّهم يعملون. قال ﷺ: «فَخلِّهم»[3].

وهذا المثالان رويا في الصحيح، وفيهما، وفي سواهما، أن الاحترام والتقدير لا يمنعان من السؤال، والاستفهام،

---

(١) صحيح البخاري: ٣ / ١٨٢، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد. وانظر: صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب: صلح الحديبية.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤ / ٣٢٥، بسند حسن.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٣١).

والتعبير عن الرأي، وهكذا ربّى رسولنا عليه الصلاة والسلام (رجالاً)، ولم يربِّ أناساً خاملين خامدين لا يتحلّون بالشجاعة الأدبية، وحرية التعبير عن الرأي!

ويحسن بنا - ونحن نتحدث عن التقدير والتقديس - أن نذكر الأمور التالية:

١ ـ الحق ليس حكراً على أحد، فكل إنسان يخطئ ويصيب، والمعصوم هو النبي عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ العالم الكبير قد تحدث منه زلّة كبيرة، يُعتذر له عنها، ولا تقدح في سائر فضائله.

٣ ـ قد يكون الرجل متفوقاً في علم دون علمٍ، فيكون لرأيه وكلامه وزن فيما برع فيه، لا فيما سوى ذلك. وكم من إمام في الحديث لا باع له في الفقه، وكم من إمام في العلوم العقلية بضاعته في الحديث مزجاة. قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله[1]: «.. فأما في هذا الزمان.. فترى المحدِّث يكتب ويسمع خمسين سنة، ويجمع الكتب، ولا يدري ما فيها، ولو وقعت له حادثة في صلاته لا فتقر إلى أحداث

(١) تلبيس إبليس: ١١١ - ١١٢ (دار القلم - بيروت).

المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه. وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين فقالوا: زوامل[1] أسفار لا يدرون ما معهم. فإن أفلح أحدهم ونظر في حديثه، فربّما عمل بحديث منسوخ، وربّما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل، وعمل بذلك، وليس بالمراد من الحديث.

«وكان ابن شاهين قد صنّف في الحديث مصنفات كثيرة أقلها جزء وأكثرها التفسير، وهو ألف جزء، وما كان يَعرف من الفقه شيئاً!!!».

٤ ـ قد يتصف العالم بخُلُق دون خُلُق، فالكمال في الرجال - حاشا الأنبياء - غير موجود. وتختلف حظوظ العلماء قلةً وكثرةً من فضائل: كالذكاء الحاد، والحكمة العميقة، والتقوى، وسعة الأفق، والذاكرة القوية، وحسن الخلق.. وكم من عالم مخلص تقي نقي لا يكتب حديثه لقلة ضبطه!

---

(١) زوامل: جمع زاملة، وهي ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها. وتسند إلى العقلاء فيقال: هو زاملة من زوامل القلم والدواة، أو الشعر والنثر، على التشبيه في التحمل، أو عدم الدراية. انظر: المعجم الوسيط: ١ / ٤٠٢. قال الزمخشري في أساس البلاغة (١٩٥، طبعة دار المعرفة - بيروت): «ومن المجاز: ما نحن إلا من الحملة والرواة، وزوامل القلم والدواة».

قال الجاحظ[١]:

«ولكل أحد نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ؛ فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ: دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيِّها، فهذا لا يُعرف».

٥ ـ قد يدرك الطالب الصغير أمراً يخفى على العالم الكبير، وهذا لا يعني أنه أعلم منه.

٦ ـ مخالفة الصغير للكبير في بعض الرأي لا تعني عدم الاحترام، ومخالفة العالم لمن هو أعلم منه لا تعني الانتقاصَ من منزلته، أو رَفْعَ النفس إلى مستواه. وما أكثر مخالفة أصحاب أبي حنيفة لإمامهم في الرأي، وظلّ هو الإمام، وظلّوا هم الأصحاب.

٧ ـ الحق لا يُعرف بالرجال، لكن الرجال يعرفون بالحق، فلا أحد أجلّ من أن يخطئ، ولا أحد أصغر من أن ينصح ويصوّب.

---

(١) رسائل الجاحظ: ١ / ٣٦ .

وفي الحادثة التالية درس وعبرة:

هذا هو الصحابي الجليل، الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أمين الأمة، أبو عبيدة عامر بن عبدالله ابن الجراح القرشي، رضي الله عنه وأرضاه، يخطئ في موضوع مهم يتعلّق بالقضاء والقدر، فيصوّبه الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والشاهد في القصة، أن الخليفة عمر خرج إلى الشام، وفي الطريق لقيه أمراءُ الأجناد وأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. فلما أراد العودة إلى المدينة المنورة بعد عملية شورى مُستفيضة، احتج عليه أبو عبيدة بالقضاء والقدر، فقال له: «أفراراً من قدر الله؟» فقال عمر مستنكراً عليه هذا الخطأ: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!؟ نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله»[(١)].

وقد عقد الإمام النووي رحمه الله في كتابه القيّم (الأذكار) فصلاً بعنوان: باب في ألفاظ حُكي عن جماعة من

(١) رواه البخاري في الطب، باب ما يذكر في الطاعون، وفي الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون. ومسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. وأبو داود في الجنائز، باب الخروج من الطاعون.

العلماء كراهتها وليست بمكروهة، فلم يمنعه احترامه لهم من مخالفتهم وبيان خطئهم. وفيه يقول: «اعلم أني لا أسمي القائلين بكراهة هذه الألفاظ لئلا تسقطَ جلالتُهم ويُساءَ الظنّ بهم، وليس الغرض القدح فيهم، وإنما المطلوب التحذير من أقوالٍ باطلة نقلت عنهم، سواء أصحَّت عنهم أم لم تصحّ، فإن صحّت لم تقدح في جلالتهم كما عُرف...»[١] ثم يأخذ بسرد تلك الأقوال وبيان فسادها.

قال التابعيّ الجليل سعيد بن المسيب رحمه الله: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصُه لفضله، كما أنّ من غلب عليه نقصانه ذهب فضله»[٢].



(١) الأذكار: ٥٤٦ - تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط (دار الهدى-ط٢: ١٤٠٩ / ١٩٨٨). ومن هذه الأقوال قول بعض العلماء يُكره أن تقول لشخص: تصدّق الله عليك، لأن المتصدق يرجو الثواب. وهذا خطأ إذ ثبت في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسّلام قال في قصر صلاة العصر: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**». ثم يسرد المؤلف حوالي عشرة أمثلة.

(٢) جامع بيان العلم وفضله - يوسف بن عبدالبر: ٢ / ٨٢١ (تحقيق: الزهيري - دار ابن الجوزي).

٧ - عدم التفرقة بين النص وتفسير النص:

لا شك أن نصوص الكتاب الكريم مقدسة؛ لأنها كلام الله سبحانه. وتتلوها في المرتبة الأحاديث الصحيحة؛ لأنها كلام الرسول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. **لكنّ بعض الناس يعطون فهمهم للنص،** أو **فهم العالم الذي يحبّونه، والإمام الذي يتّبعونه مَرْتبةَ النص نفسَها،** ويَعدّون من خالف فهمهم مخالفاً للنص! ولا يخفى ما في هذا الأمر من البعد عن الحق والصواب. ولهذا السبب ضلّل أقوامٌ أقواماً، وفسَّق أناسٌ أناساً، بل وزعم بعض الناس أنهم وحدهم هم أهل التوحيد الخالص!!

إن أكثر نصوص الكتاب والسنة **ظنية الدلالة**؛ أي تحتمل أكثر من معنى واحد، **والبشر متفاوتون في عقولهم، وعلومهم، وقوة فهمهم واستنباطهم**؛ لذلك كان الاختلاف بينهم في فهم تلك النصوص أمراً طبيعياً وشتان بين من يقول: إن هذه الآية خطأ، وإن هذا الحديث بعيد عن الصواب، وبين من يقول: إن فهم فلانٍ لهذه الآية أو ذاك الحديث خطأ، وأنا أرى رأياً آخر، أو أرجّح فهماً آخر.

وهؤلاء هم الصحابة الكرام، معدن اللغة العربية، وفهمهم حجة فيها، اختلفوا في فهم كلام النبي ﷺ، وهو سيد الفصحاء والبلغاء.

روى البخاري ومسلم[١] رحمهما الله في صحيحهما، عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب قال: «لا يُصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهُم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ ذلك منّا، فذُكر للنبي ﷺ، فلم يُعنّف أحداً منهم».

فالنص-إذن - شيء، وتفسير النص، أو فهمه شيءٌ آخر.

«إن الاختلاف بوجهات النظر - بدل أن يكون ظاهرة صحة تغني العقل المسلم بخصوبة في الرأي، والاطلاع على عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلِّها، وإضافة عقول إلى عقل - انقلب عند مسلم عصر

(١) البخاري: ٧ / ٣١٣ في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، وفي صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً. ومسلم برقم: ١٧٧٠ في الجهاد، باب المبادرة في الغزو.

التخلف إلى وسيلة للتآكل الداخلي، والإنهاك، وفرصةٍ للاقتتال، حتى كاد الأمر يصل ببعض المتخلفين إلى حد التصفية الجسدية وإلى الاستنصار والتقوّي بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف، ولهذا في التاريخ القريب والبعيد شواهد. فكثيراً ما يعجزُ الإنسان عن النظرة الكلية السوّية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة، فيقبع وراء جزئية يضخّمها، ويكرّرها حتى تستغرقَه إلى درجةٍ لا يمكن معها أن يرى شيئاً آخر، أو إنساناً يرى رأياً آخر، وقد تصل به إلى أن يرى - بمقايسات محزنة - أعداء الدين أقرب إليه من المخالفين له بالرأي من المسلمين الذين يلتقون معه على أصول العقيدة نفسها»(١).



(١) من تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب أدب الاختلاف في الإسلام: ١٠ - ١١ (كتاب الأمة - ط١: ١٤٠٥).

٨ ـ أخطاء المقارنة:

في المقارنة بين أمرين (أو شخصين، أو جماعتين، أو حزبين، أو بلدين، أو نظامين...) يضع بعض الناس حسنات هذا أمام عيوب ذاك، ويحكمون لأحدهما على الآخر، والصواب أن نضع حسنات الطرفين في كفتين متقابلتين ونوازن بينهما، ثم نفعل بالعيوب مثل ذلك. آخذين بالحسبان أن الحسنات تتفاوت فيما بينها في الأهمية، وكذلك العيوب. فالحفاظ على سنة التطيّب -مثلاً- ليس كالحفاظ على سنة التهجد في الفضل، وإغلاظ القول للأخ الأصغر ظلماً ليس كإغلاظه لأحد الوالدين!



٩ ـ تناقض الموازين (أو الكيل بمكيالين):

المراد بتناقض الموازين أن يستعمل الإنسان ميزانين مختلفين لوزن حالتين متشابهتين. ويحصل هذا أحياناً في الأمور الفقهية الخلافية دون أن يفطن الواقع فيه إلى ما يقع فيه من التناقض. فنجد الشخص - مثلاً - يستشهد على صحة الرأي الشرعي الذي يحمله بقول الإمام الذي يتّبع مذهبه، أوالعالم الذي يميل إليه، في الوقت الذي لا يرضى منك أن تستدل بقول الإمام الذي تتبع مذهبه، أو العالم الذي تميل إليه، ويقول لك: أريد الدليل من الكتاب أو السنة، ونسي أنه أتى بدليله من فهم العلماء لا من الكتاب والسنة!!

وتناقض الموازين، أو (الكيل بمكيالين) هو نوع من أنواع الظلم للحقيقة (وهو ظلم معنوي) عند الحديث عن التفكير وعيوبه، وقد يكون (ظلماً مادياً) على مستوى الأفراد، أو الجماعات، أو الأحزاب، أو الشعوب، أو الدول... فيمارس كل واحد من هؤلاء نوعاً من الظلم يختلف باختلاف دواعيه، وأسبابه، وموضوعه....

وقد أشار القرآن الكريم إشارة رائعة إلى هذا النوع من أنواع الظلم بقوله:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾!؟

إذ بدأت سورة (المطففين) بإعلان الحرب من الله عليهم. والمطففون هم الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن عن الواجب لهم من الوفاء. جمع: مُطفِّف؛ من الطّفيف، وهو التافه القليل؛ لأن ما يبخسه المطفف شيءٌ نزرٌ حقير. وهو وعيد شديد لمن يأخذ لنفسه وافياً، ويعطي لغيره ناقصاً، قليلاً كان أو كثيراً. وأنا أرى الشبه شديداً بين (التطفيف المادي) و(التطفيف المعنوي)، بل قد يكون الثاني أخطر بكثير!![1].



(١) انظر: في ظلال القرآن - سيد قطب: ٦ / ٣٨٥٤، (ط. دار الشروق - ١٣٩٧هـ)، وصفوة البيان لمعاني القرآن - حسنين محمد مخلوف: ٧٩٠، (ط٣ - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت).

١٠ ـ الخطأ في استعمال اللغة:

«قال عثمان المهري: أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء، ويذكر فيها: تعلّموا العربية فإنها تُثبّتُ العقلَ، وتزيد في المروءة»[١].

يقول وليم شانر في كتابه: الطريق إلى التفكير المنطقي، تحت عنوان: الدقة في استعمال اللغة[٢]:

«التفكير المنطقي نوع من المحادثة التي نقوم بها مع أنفسنا. إننا نسأل أنفسنا، ونبحث عن إجابات لأسئلتنا، ثم نقارن كل إجابة بالأخرى. ولكي نقوم بهذه المحاولة نجد أنفسنا مضطرين إلى استخدام الألفاظ، ودون هذه الألفاظ لا نستطيع أن نفكّر تفكيراً منطقياً. إن الألفاظ لَبِنات التفكير المنطقي، وإذا شئنا أن نفكر تفكيراً صائباً فإن من الواجب أن نفهم ما يتعلق بمادة البناء التي نستخدمها».

---

(١) صبح الأعشى – المقالة الأولى – تحت عنوان: المعرفة بالنحو وبيان وجه احتياج الكاتب إليه.

(٢) ص٢٢ بتصرف. وانظر: التفكير الواضح – هاي روتشليس: ٦٥ – ٩١ بعنوان: اللغة والتفكير؛ والتفكير المستقيم والتفكير الأعوج – روبرت ثاوليس: ١٠٧ – ١٢٢ بعنوان: معاني الكلمات؛ وفصول في التفكير الموضوعي – د. عبدالكريم بكّار: ١٢٧ – ١٢٩ بعنوان: اللغة الكمية.

يقول الراغب الإصفهاني[١]: «...إن أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظية. ومن العلوم اللفظية: تحقيق الألفاظ المفردة؛ فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن الكريم في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللَّبِن في كونه من أول المْعاون في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم...».

ويقول جوزيف چاسترو[٢].

«إن جزءاً كبيراً من تفكيرنا يجري في ألفاظ. فالكلام والكتابة يبلوران الألفاظ وينظّمانها. والحجة القانونية أو العلمية، ومخاطبة الناس جميعاً: أفراداً وجماهير تقوم على صياغة الأفكار في قوالب الألفاظ؛ فالتدريب -إذن- على الاستعمال الصحيح للغة، وتوسيع دائرة المفردات هو أحد أنواع التدرّب على التفكير.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٠ .

(٢) التفكير السديد: ٢٥٦ - ٢٥٧ بتصرف، وانظر: اللسان والإنسان - د. حسن ظاظا، الفصل الرابع: الكلام والفكر.

«والألفاظ -أيضاً- قد تعرقل التفكير وتؤذيه، إذا استُخدمت بشكل عائم غائم، من غير أن يكون وراءها رصيد من أفكار صحيحة واضحة، وما أكثر أخطاء التفكير الناجمة عن خداع الألفاظ.

«إن معرفتك كيف تقول ما تفكر فيه بشكل سديد مبدأ من أهم مبادئ (الصحة المنطقية)، إذ الفكر ينضَجُ عن طريق التعبير؛ لأنك حين تكون بصدد الكتابة أو الكلام تتعلم كيف تفكر تفكيراً سديداً لِتُحسنَ التعبير، كما تتعلّمُ كيف تفكر تفكيراً سديداً وأنت تعمل لِتُحسنَ التنفيذ...».

ومن الأخطاء الخطيرة التي يقع فيها بعض الناس، وتكثر عند الشعراء والأدباء، أنهم يجعلون المعاني تابعة للألفاظ، فيسترسلون مع التعابير والمفردات، بشكل يهدد المعنى، ومن ثمّ يهدد التفكير:

قال الإمام عبدالقاهر الجرجاني[1] رحمه الله: «ومن هنا رأيت العلماء يذمّون من يحملُهُ تطلّبُ السجعِ والتجنيسِ على أن يضمَّ لهما المعنى (أي: يجعله تابعاً لهما لا متبوعاً)، ويُدخلَ

---

(١) دلائل الإعجاز: ٤٠١، (دار الكتب العلمية - بيروت).

الخلل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسّف في الاستعارة بسببهما..».

«إن تحفيظ الطفل المفردات اللغوية يسهم في إطلاق طاقاته المتنوعة. ويرى (فيشر)[١] - في معرض تعليقه على تحفيظ القرآن لأبناء المسلمين - أن تزويد الطفل بالمهارات اللغوية منذ الطفولة المبكرة يسهم في تفوقه المستقبلي، كما يرى أن التفوق في مجال الاجتماع والسياسة مقصور على الذين نشؤوا في بيئة غنية لغوياً، وتزودوا بالمهارات اللغوية مبكراً.

«إن الطلاقة اللغوية تشجع على التفكير المجرّد، كما تساعد صاحبها على الدقة في التعبير بطرق مختلفة، وتنمي التواصل والتفاهم مع الآخرين، وتساعد على التعليم الذاتي؛ لذلك لا عجب إذا قلنا: إن الذكاء اللغوي هو أحد مفاتيح النجاح في الدراسة، وفي الحياة العلمية على حدٍّ سواء، وهو بحاجة إلى تدريب لينمو ويقوى»[٢].



(١) Fisher, R. (1990) Teaching Children To Think, P. 15.

(٢) تعليم التفكير - د. إبراهيم أحمد الحارثي: ص ٢٢، ٢٣ بتصرف.

العلاج

أرجو أن نكون قد اقتنعنا بأهمية التفكير السديد، وبضرورة تعلمه وتعليمه، وبأنه أحد أركان الفاعلية الفردية والجماعية. والأمر بحاجة إلى تربية متكاملة، وخطة طويلة الأمد، يتعاون على تحقيقها البيت، والمدرسة، والمسجد، والجامعة، والنادي، والجمعية، ووسائل الإعلام... إذ «ليس هناك حلٌّ سحري يعرفه أحد منا نحن البشر يشفي عرجان العقل وعميانه، ويجعل مُقعديه يحملون أسرَّتهم ويمشون! فالتفكير سياق يستغرق الحياة كلَّها: يبدأ مع تدريباتك الأولى في الحياة، وينضَج مع نضج تجربتك وحكمتك، ويصاحب تقدّمك مرحلة مرحلة في إتقان ذلك الفن الصعب. فليس التفكير السديد جائزة تحصل عليها جزاءً لك على عشرة تمرينات يومية، وليس طريقاً مفتوحاً في وجه كل من يملك كلمة المرور، أو كلمة السر. فيجب علينا أن ننظر إلى الأمر ونعالجه من زاوية أخرى. يجب أن نسأل بهدوء وتواضع: إلى أي مدى ينجح عالم المنطق - عندما يستعين بعالم النفس - في أن يكون مهندساً فكرياً يعلم الناس التفكير؟؟

•

«.. ومع ذلك يمكن للتدريب أن يفعل الكثير في شحذ آلة التفكير وضبطها، فقليلون جداً من ينمّون جسمهم ويدرّبونه ليصل إلى أقصى قُدُراته، على النحو الذي ينجح فيه أبطال الرياضة ومحترفوها، وأقل منهم - مع الأسف - من يُعنون بتدريب عقولهم لتصل إلى أقصى طاقاتها في العطاء»(١).

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص والصواب في القول والعمل، ويكرمنا بأحسن قبول متجاوزاً عن التقصير وحظ النفس، إنه أكرم مسؤول وأرجى مأمول. والحمد لله رب العالمين.



---

(١) التفكير السديد - جوزيف چاسترو: ٢٤١، ٢٤٥ - ٢٤٦ بتصرف.

مصادر البحث

١ ـ آداب الشافعي ومناقبه – أبو حاتم الرازي.

٢ ـ أدب الاختلاف في الإسلام – د. طه جابر.

٣ ـ الأذكار – النووي.

٤ ـ الإسناد من الدين وصفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين – عبدالفتاح أبو غدة

٥ ـ إيضاح المبهم من معاني السلّم – أحمد الدمنهوري.

٦ – الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء – أبو عمر يوسف بن عبدالبر الأندلسي.

٧– تاج العروس من جواهر القاموس – محمد مرتضى الزبيدي.

٨ – التعريفات – علي بن محمد الشريف الجرجاني.

٩– تعليم التفكير – د. إبراهيم أحمد الحارثي.

١٠ – تفسير القرآن العظيم – ابن كثير.

١١ – التفسير الكبير – فخر الدين الرازي.

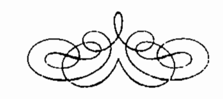
١٢ – التفكير السديد – جوزيف چاسترو.

١٣ – التفكير علم وفن – هنري هازليت.

١٤ – التفكير العلمي – د. الدمرداش سرحان ود. منير كامل.

١٥ - التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد.
١٦ - التفكير المستقيم والتفكير الأعوج - روبرت هـ. ثاولس.
١٧ - تلبيس إبليس - أبو الفرج بن الجوزي.
١٨ - تيسير مصطلح الحديث - د. محمود الطحان.
١٩ - جامع الأصول في أحاديث الرسول - ابن الأثير.
٢٠ - جامع بيان العلم وفضله - أبو عمر يوسف بن عبدالبر.
٢١ - دلائل الإعجاز - عبدالقاهر الجرجاني.
٢٢ - دليل مهارات التفكير - ثائر حسين وعبدالناصر فخرو.
٢٣ - زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي.
٢٤ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د. محمد أبو شهبة.
٢٥ - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - د. مهدي رزق الله أحمد.
٢٦ - صبح الأعشى - القلقشندي.
٢٧ - صحيح الإمام البخاري.
٢٨ - صحيح الإمام مسلم.
٢٩ - صفوة البيان لمعاني القرآن - حسنين محمد مخلوف.
٣٠ - صفحات من أدب الرأي - محمد عوامة.
٣١ - صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام - جلال الدين السيوطي.
٣٢ - الطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر.

٣٣ - عون المعبود، شرح سنن أبي داود - محمد شمس الحق العظيم آبادي.
٣٤ - الفتاوى - ابن تيمية.
٣٥ - فصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكّار.
٣٦ - فقه السيرة - د. محمد سعيد رمضان البوطي
٣٧- في ظلال القرآن - سيد قطب.
٣٨- القرآن وعلم النفس - د. محمد عثمان نجاتي.
٣٩ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - محمود بن عمر الزمخشري.
٤٠ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس- إسماعيل بن محمد العجلوني.
٤١ - اللسان والإنسان - د. حسن ظاظا.
٤٢ - مجلة القافلة - أرامكو.
٤٣ - مسند الإمام أحمد.
٤٤ - المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية.
٤٥ - المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني.



الفهـرس

الموضوع	الصفحة



